المحاضرة الخامسة: السياسة الاستعمارية الإيطالية في ليبيا

مقدمة:

تعتبر ليبيا من أهم بلدان المغرب العربي التي تعرضت لأبشع استعمار مع مطلع القرن العشرين، كانت خاضعة للحكم العثماني منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي تحت اسم طرابس الغرب، حيث تمكن الأتراك العثمانيين من افتكاكها من بين أيدي المحتل الإسباني، وكانت على غرار الإيالات المغربية الأخرى تخضع للحكم العثماني خضوعا غير مباشر، حيث احتفظ بخصوصياتها، إلى غاية سنة 1711 حيث أاستطاع أحد أفراد الأسرة القرمانلية من تأسيس حكم وراثي دام حتى الاحتلال الإيطالي لها سنة 1911. ويندرج احتلال ليبيا ضمن المشروع الأوروبي الذي رام إلى اقتسام تركة الدولة العثمانية التي بذلوا كل مساعيهم من أجل إضعافها والقضاء عليها في ظل الظروف التي كانت تعرفها هذه الدولة، والتي ساعدتهم على تحقيق أغراضهم مع نهاية القرن 19 ومطلع القرن العشرين.

1-الغزو الإيطالي لليبيا و ردود الفعل الليبية

أ-الغزو الإيطالي لليبيا

بعد أن تمكنت إيطاليا من تحقيق وحدتها القومية سنة 1871 ازداد طموحها واشتدت أطماعها و قويت لديها الرغبة في ضرورة دخول حلبة المنافسة الاستعمارية إلى جانب الدول الأوربية الكبرى الأخرى(كان الصراع على أشده بين فرنسا وأنجلترا والتحقت بهما ألمانيا بعد تحقيق وحدتها عام 1870)، وكانت إفريقيا الشمالية محل نزاع وصراع بسبب الضعف الذي كانت تعاني منه نتيجة انهيار الدولة العثمانية التي كانت تلقي بظلالها على المنطقة المذكورة، ولا سيما بعد أن تمكنت فرنسا من بسط نفوذها على الجزائر ثم على تونس، وأصبح المغرب الأقصى قاب قوسين أو أدنى من الاحتلال، ولم يبق سوى ليبيا خارج مجال ذلك التنافس، فرأت إيطاليا أنه من واجبها أن لا تفوت الفرصة، وتبادر بالدخول إلى حلبة المنافسة الاستعمارية من خلال ليبيا، فكان عليها أولا أن تبحث عن أساليب تمكنها من التغلغل السلمي داخل هذه الأخيرة التي كانت ما تزال تابعة للدولة العثمانية التي باتت ضعيفة وعاجزة عن الدفاع عن أراضيها.

وقد بدأ التغلغل الإيطالي في ليبيا وبالضبط في طرابلس وبرقة في شكل بعثات استكشافية من تنظيم الجمعية الإيطالية للاستكشاف الجغرافي والتجاري، التي كان مقرها في ميلانو.

-الغزو العسكري:

بعد أن هيأت إيطاليا الأجواء ومهدت جميع الطرق بما فيها الحصول على موافقة الدول الأوروبية الكبرى، شنت حملة بحرية في شهر سبتمبر 1911 بغرض فرض حصار محكم على الأراضي الليبية من جهة البحر، حيث كانت الحملة كبيرة استهدفت الاحتلال باستخدام القوة العسكرية، وكان احتلال المواقع الليبية على مراحل، ومن دون مقاومة قوية، حيث كانت الحاميات العثمانية ضعيفة، لم تتمكن من مواجهة الجيوش الإيطالية المتطورة حينئذ.

نظم الليبيون مقاومة شرسة ضد الاحتلال الإيطالي بزعامة الطريقة السنوسية في البداية ثم تزعم المقاومة الشيخ عمر المختار الذي أظهر للإيطاليين بسالة وشجاعة منقطعة النظير في التضحية والجهاد،

حتى نفذ منه السلاح اين تمكن العدو الإيطالي من إلقاء القبض عليه، وبعد محاكمة صورية فاضحة تم الحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في يوم 16 سبتمبر 1931، إن إعدام شيخ طاعن في السن بقي وصمة عار في جبين الاحتلال الإيطالي، وباستشهاد عمر المختار تواصلت المقاومة، لكن ما لبثت أن ضعفت وتوقفت بعد سنة واحدة.

2-السياسة الإدارية للاحتلال الإيطالي في لبيبيا:

بدأت إيطاليا في تنفيذ سياستها الاستعمارية في ليبيا من خلال إصدار مرسوم ملكي في 1911/11/5 ينص على أن الأراضي التي تخضع لإيطاليا يتم تسييرها بواسطة مراسيم إيطالية إلى غاية صدور القانون الأساسي الذي يسير شؤون المستعمرة. ثم تلاه مرسوم 1912/11/20 الذي نص على تشكيل وزارة المستعمرات.

وصدر مرسوما آخر تم بموجبه تقسيم ليبيا إلى حكومتين واحدة في برقة، والأخرى في بنغازي، ثم تلا هذا المرسوم مراسيم أخرى تقسم الحكومتين إلى أقاليم ومقاطعات يحكمها حاكم، بمساعدة مجلس يضم في تشكيلته ممثلين من الأهالي.

كما صدر القانون الأساسي لولايتي برقة وطرابلس والذي نص على ما يلي:

-تأسيس حكومات محلية في الولايتين

-جباية الضرائب من صلاحيات البرلمان

-تمويل الخدمات العامة من الميزانية

-حرية الصحافة وحق التعليم للأهالي حتى المرحلة الثانوية.

وجاءت المرحلة الثانية تعمل على استيطان الأوروبيين في الأراضي الليبية والاستغلال الفلاحي، حيث شرعت الحكومة الإيطالية مجموعة من المراسيم والقرارات تمكنها من الاستيطان والاستيلاء على الأراضي.

وخلال الحكم الفاشي تم تغيير الحكم في ليبيا من خلال إسناده إلى حاكم واحد وجعل الحكومتين تحت حكومة واحدة يسمى هذا الحاكم والي يساعده مجلس استشاري، وقد قسمت ليبيا إلى 4 مقاطعات هي طرابلس و مصراتة وبنغازي ودرنة.

3-السياسة الاقتصادية:

ارتكزت السياسة الاقتصادية للاحتلال الإيطالي في ليبيا على تشجيع المهاجرين الأوروبيين للاستيطان في ليبيا، وذلك من خلال منحهم الأراضي الجيدة، والقروض البنكية من أجل إنشاء المستثمرات الفلاحية، وبناء البيوت، وعملت الحكومة على استحداث بعض المرافق الضرورية لتسهيل عملية الاستيطان، واستقرار الجاليات الأوروبية عامة، والإيطالية على وجه الخصوص، من مدارس ومستوصفات ومعابد غيرها، وفي الوقت ذاته كان الليبيون يعيشون في فقر وجهل وحرمان.

وقد ازدادت وطأة الاحتلال عند اعتلاء الحزب الفاشي السلطة في إيطاليا، حيث ازدادت الهجرة إلى الأراضي الليبية، واعتمد الاحتلال على تشجيع النشاط الفلاحي لا سيما غراسة الأشجار المثمرة كالزيتون والكروم.

وكان الإيطاليون لا يترددون في مصادرة أراضي الأهالي كلما عجز هؤلاء عن تسديد ديونهم، أو الضرائب المفروضة عليهم، وتوزيعها على الإيطاليين.

4-السياسة الثقافية التي اتبعتها إيطاليا في ليبيا خلال الفترة من (1911 – 1943م):

بدأت المخططات الإيطالية الساعية لطمس الثقافة العربية في ليبيا قبل الغزو الإيطالي، فقد سعت إيطاليا إلى تمرير ثقافتها إلى الوسط الاجتماعي الليبي عبر عدة قنوات، تفاوتت في الأهمية والقوة والفاعلية عن طريق المؤسسات الدينية والتعليمية والإعلامية، سالكة في ذلك سياسة مدروسة محكمة قائمة على تسخير تلك المؤسسات للتغلغل والتسلل من خلالها إلى داخل المجتمع الليبي لبسط سياستها وآرائها وأفكارها عليه. ولأهمية المؤسسة الدينية فقد أولتها إيطاليا عناية خاصة، وأفردت لها الجهد، وخصصت لها الوقت لدراستها، وفهمها فهماً جيداً، والنظر إليها بعمق، ومحاولة الاستفادة منها في تحقيق أهدافها، واقتنعت بأن أي مساس بتلك المشاعر واستفزازها سيثير العواطف ضدها، ويؤجج نار العداوة في نفوس المواطنين المسلمين على اختلاف مواقفهم السياسية. وكانت المؤسسة التعليمية أداة أساسية في سياسة إيطاليا الثقافية، فقد حاولت الحكومة الإيطالية استغلالها إلى أقصى حد لتحقيق أهدافها، فعملت منذ البداية على محاولة كسب الطلاب وذويهم. كما كان لوسائل الإعلام أهمية خاصة، على الرغم من محدودية انتشارها من جهة، وضآلة حجم الفئة الشعبية التي يمكن مخاطبتها مباشرة من خلالها من جهة أخرى. وتكمن أهميتها في مخاطبة الفئة المتعلمة، وهي فئة صغيرة، إلا أنها عظيمة الأهمية، لأنها الطبقة الواعية والمؤثرة في المجتمع، فهي ليست هدفاً في حد ذاتها فحسب، بل هي أيضاً وسيلة المخاطبة للأغلبية الساحقة من الفئات الشعبية. ولم يبق التراث الثقافي بمعزل عن المخططات الاستعمارية الإيطالية، فصرفت إيطاليا المبالغ المالية على الأعمال الأثرية الرومانية في مختلف أنحاء البلاد، وبذلت الجهود في عمليات الاستكشاف والتنقيب والترميم والدراسات التي كانت منصبة بشكل خاص على التراث الروماني في ليبيا، لإثبات أن ليبيا كانت ولاية إيطالية في الماضي. كما اهتمت إيطاليا بعملية التواصل المباشر بين الليبيين والإيطاليين في المعاملات اليومية سواء أكان على المستوى الفردي أم الجماعي، تلك الاتصالات التي أولتها الحكومة الإيطالية عناية خاصة لما لها من أثر عميق في التأثير على الليبيين.

الوسائل التي المستخدمة لتحقيق هذه السياسة:

اعتمدت إدارة الاحتلال الإيطالي على طَلْيَنَةْ(على وزن فَرْنسة) المجتمع الليبي من خلال نشر التعليم باللغة الإيطالية، وتكريس الجهود على تدريس تاريخ إيطاليا، والتعريف بماضيها وأمجادها. وفي العهد الفاشي ركزت على تمجيد هذا الحزب ورموزه. ويبدو أن حاجة الإدارة الاحتلال إلى مساعدة الأهالي دفعت بها إلى إنشاء المدارس لتخريج موظفين لمساعدتها في تسيير شؤون الأهالي، على غرار الأئمة والقضاة والمفتيين والكتاب. وذلك بموجب القرار الملكي الذي صدر سنة 1916 بغرض احتواء التعليم التقليدي.

5-السياسة الاجتماعية:

لم تختلف السياسة الاجتماعية التي انتهجتها سلطة الاحتلال الإيطالي عن السياسة الفرنسية أو الإسبانية، فهناك قواسم مشتركة بين هذه الحكومات، ومنها الترويج لفكرة رسالة الرجل الأبيض (الأوروبي) المتحضر وهي إخراج الشعوب من تخلفها وتخليصها من الهمجية والبربرية، ومن هذا المنطلق فقد عملت الحكومة الإيطالية على نشر اللغة الإيطالية والثقافة الإيطالية ونمط المعيشة الإيطالي في أوساط المجتمع الليبي المسلم المحافظ، فأدخلت عليه عادات وتقاليد وأنماط غريبة كشرب الخمور وبناء المواخير وغيرها من رموز الحضارة الغربية، كما ركزت على النشاط التبشيري من خلال إقامة الكنائس وتشجيع التنصير، وبالمقابل حاربت سلطات الاحتلال الدين الإسلامي من خلال التضييق على النشاط الديني وإهانة رموزه من مساجد وكتب وزوايا، وحاربت التعليم العربي ووصفته بالمتخلف وبأنه لا ينتج سوى التطرف والإرهاب، وأهانت العلماء والفقهاء، وتعرضت للقرآن الكريم بالسب والإهانة واعتبرته سبب تخلف المسلمين.

إن أكثر الأيام اضطهادا وقمعا في ليبيا هي أيام الحكم الفاشي، فقد كانت ردة فعل الاحتلال الإيطالي على المقاومة الليبية الباسلة عنيفة وقاسية، حيث قامت سلطة الاحتلال بمصادرة أملاك كل من يشتبه فيه مساعدة الثوار، أو متعاطف معهم، علاوة على التقتيل الجماعي للرجال والنساء على حد سواء، والزج بالعلماء في السجون، وتركهم بدون مأكل ولا مشرب حتى الهلاك، ولعل من أبشع الجرائم التي ارتكبها الإيطاليون في ليبيا هي جرائم اغتصاب النساء، انتقاما من الثوار، فقد كان الجنود يلجؤون إلى اغتصاب النساء وتقييدهن عاريات في الهواء الطلق مع منع الأكل والشرب عنهن، فكن يهلكن من شدة الجوع والعطش وحرارة الشمس المحرقة.

وعلى أية حال فقد عانى الشعب الليبي أكثر ما عاناه بعد فشل المقاومة بأسر الشيخ عمر المختار، حيث كان الفارق كبيرا بين الطرفين في العتاد والعدد، فبعد توقف المقاومة المسلحة أعلنت الحكومة الإيطالية الفاشية حينها أن ليبيا هي الشاطئ الرابع لإيطاليا، وأخذت العائلات الإيطالية تتدفق على ليبيا، وتنتزع الأراضي من أصحابها الذين تحولوا إلى مجرد مزارعين لدى الإيطاليين بعد أن كانوا أسيادا في أراضيهم.